علامات على الطريق-
لازم تزبط!!!
" مرثية إلى صخرأبو نزار "

كتبها - يحيى رباح

كان حلما،
كان وعدا،
كان ذاكرة وشاهدا على عبقرية الفكرة الملهمة.
إنه يحيى حبش " صخر أبو نزار " الذي صعدت روحه إلى الملأ الأعلى، وغاب عند مفترق الطرق، مثلما لمع ذات يوم قبل عقود عند مفترق الطرق، حين اختار ذلك المهندس الجيولوجي الذي درس في الولايات المتحدة، أن يكون مقاتلا في ثورة الفتح، الثورة الفلسطينية المعاصرة، فمنحها بامتياز كل صفاء عقله، وصدق انتمائه، وتوهج موهبته في محطات طويلة، ومنعطفات حاسمة، ومحاولات دائمة شجاعة، مع جيله الذي انتمي إليه والذي لم يرث من هذه الدنيا الظالمة سوى النكبة، واللجوء، والمنافي، وفقدان الهوية، ومصادرة الاسم والعنوان!!! فقرر ذلك الجيل الخارق أن يواجه النكبة بالبطولة، وان يواجه اللجوء والمنافي بقوة الحضور، فكانت البندقية وطنه حتى يعود الوطن!!! ويواجه فقدان الهوية والعنوان بأن يكون هو نفسه أعظم ظواهر العصر، وعنوان زمن بأكمله إنه الزمن الفلسطيني.
صخر أبو نزار، تعرفت عليه عن قرب وبشكل مباشر في جبل الأشرفية في عمان، في شهر تموز من العام 1970، حين كنت أحد أعضاء الخلية التي تدير إذاعة صوت العاصفة من القاهرة، وقد أغلقت الإذاعة في ذلك الشهر، وتحديدا في يوم الثامن والعشرين من تموز عام 1970، لخلاف عارض مع الاشقاء المصريين آنذاك، ورغم أننا كنا على ثقة بأن الإغلاق لن يستمر طويلا، فقد مارسنا فلسفة المحاولة التي كنا نعتنقها، وهكذا انطلقت إذاعة صغيرة من جبل الأشرفية في عمان اسمها صوت العاصفة، وكان لها رمز كودي وهو زمزم 105، وكان يقود تلك الإذاعة ذلك المهندس الجيولوجي الذي يكتب الشعر باللغتين العربية والإنجليزية وهو صخر أبو نزار، الذي كان في ذلك الوقت يرفع في وجه الصعوبات عنواناً جميلا وشعارا يثير الإبتسام " لازم تزبط".
لم أر صخر أبو نزار يائسا في أي لحظة على امتداد أكثر من ثلاثة عقود بعد ذلك، رغم أن الحزن إنغرس في قلبه منذ وقت طويل، منذ لحظة الخروج التراجيدي من قريته الجميلة بيت دجن بالقرب من مدينة يافا، وهي قرية يعود تاريخها إلى زمن الكنعانين قبل أربعة آلاف سنة، كانت مثل مدن السحر وسط غابة من بساتين البرتقال، وزحف به المنفى إلى أبعد المسافات!!! ثم حين استشهد شقيقه الأصغر أحمد الذي كان من أبرز كوادر تنظيم حركة فتح في الجامعات المصرية، حيث استشهد في اشتباك مسلح في مستعمرة " بتاح تكفا " التي أقامها الصهاينة على أراضي قرية " ملبس " الفلسطينية وأطلقوا عليها ذلك الاسم العبري الذي يعني بالعربية بوابة الامل!!! وكأن أحمد حبش قرر أن يبدأ الصراع في بدايته من هناك، من البداية الاولى، ومن القاعدة الجوهرية، قاعدة الإستيلاء على الأرض من قبل الإسرائيليين تحت عنوان الاستيطان.

و كانت آخر مرة رأيت فيها صخر أبو نزار قد جرت بعد أربعة وثلاثين عاما من لقائي الأول به، عندما كنت في رام الله في ضيافة الرئيس عرفات المحاصر في المقاطعة في أوائل عام 2004، ثم أصبحت الدروب بعد ذلك مستحيلة، فقد استشهد الرئيس عرفات، وتفاقم الوضع أكثر مع الإسرائيليين، ثم جاء الانقسام الفلسطيني الأكثر كارثية، وكانت الهجمات القلبية قد تواصلت ضد هذا القلب الكبير، حتى إنتصرت عليه في النهاية، لكنها لن تستطيع أن تسرق اسمه من كتاب فلسطين الخالد، ولن تستطيع أن تقتلع شجرته الوردية من حدائق الذاكرة.

أعترف لكم أنني بكيت بحرقة حين جاءني خبر الرحيل، وأنني لم أستطع أن أغالب دموعي، ليس بسبب الموت نفسه، فأبناء جيلي يحتفظون في دفاتر يومياتهم بأسماء مئات من الاخوة والأصدقاء والفراق كانوا قد رحلوا في عربات الموت الرمادية على الطريق الطويل الذي بلا نهاية!!! بل إن ألبومات الصور التي نحتفظ بها في حلنا وترحالنا، ونقلبها بين وقت وآخر، تزدحم بصور الأحبة الذين غابوا واوغلوا في الرحيل!!!

ربما يكون سبب انفطار القلب وانفجار ينابيع الدموع، أن رحيل أي واحد من جيلنا الذي صنع قيامة فلسطين رغم كل ما له وماعليه، يطرح علينا أسئلة صعبة ومرتجفة من شدة الخوف على حلمنا المقدس الجميل، وعلى الأمانة التي في الأعناق، وعن الوطن فلسطين الذي يسكن فينا، هل مازال معرشا على الأجفان؟؟؟ وهل حداء القافلة يقترب من حلمنا حثيثا، أم أنه تاه بعيدا في كهوف سوداء، وصحراء خلبية، ودروب وهمية مزروعة بشجر الخلاف والأفول؟؟؟

يا صديقي وأخي وحبيبي صخر أبو نزار،

لروحك الرحمة،

و لذكراك السلام

بقلم / يحيى رباح